الرجل في التاريخ

أى مكان لطلعت حرب فى تاريخ مصر الحديث ؟

الجواب على هـــذا بعد الذى قدمناه من أعمـال الرجل وأمجاده سهل ميسور فقد أنشـأ الرجل بنك مصر وقد عجز من تقدموه عن إنشائه رغم ما حاولوا ورغم ما بذلوا على مر السنين ...

وقد أنشأ الرجل طـائفة من الصناعات والتجارات على نطـاق واسع كبير وقد عجز من تقدموه عن أن يفعلوا هذا أو بعضه رغم ما حاولوا ورغم ما بذلوا على مر السنين ...

وقد أنفق الرجل فى إنشاء البنك و إنشاء هذه الصناعات جهد الجبابرة الذى لا ينكسر ولا يلين . . . وما من شك أن الرجل لم يكن يسـير على أرض ناعمة بل كان يرتاد المجاهل و ينحت فى الصخور ...

و بنك مصر وشركات مصر ينتظمها جميعاً مظهر واحد هو مظهر التوثب والنهوض ... وتلتقى جميعاً عند غرض واحد كان طلعت حرب يهدف إليه بحسه ، و إيمانه . بتفكيره وعمله ... فأى غرض يكون ؟

لم يخف الرجل نواياه رغم ما أحيط به من ترصـد وتضييق ، بل جهر بها وأعلنها فى كل وقت وحين ...

لم يتردد الرجل فى أن يعلن منـذ بدء الشوط أنه يتوق إلى اسـتقلال البـلاد الاقتصادى و إلى أنه لا يريد ببنك مصر ولا بتلك الشركات التى

يؤسسها ويرفع أعلامها يوماً بعد آخر وسنة بعد أخرى إلا أن تكون لبنات في هذا البناء الاقتصادى العظيم الذى ملأ خياله واستغرق حسه وقلبه الكبير .. فجهد له وفنى فيه ورصد لغايته كل ما وهبه الله من قوى العقل والجسم والروح ...

والذين عاصروا الرجل منذ بدء نهضته فى بنك مصر سنة ١٩٢٠ يعلمون أنه ظل قائماً بإدارته متحملا بتبعاته مدى الـ ٥ سنوات الأولى من حياته بلا مقابل وبلا أجر فى قليل أو كثير ... وأنه لم يتقاض أجراً إلا حينما حمله مساهمو البنك بعد هذه السنوات الخمس على إنهاء تطوعه النادر العجيب ...

والذين حضروا جلسة الجمعية العمومية لبنك مصر فى سنة ١٩٣٨ رأوا الرجل كيف حضر الاجتماع محمولا على محفة وقد أجهده المرض الداهم الشديد ... ولكن هؤلاء الذين رأوه فى الاجتماع المذكور قد لا يعلمون أنه خالف فى هذا الحضور أوامر الطبيب وأنه خاطر بحياته لكى لا يفوته اجتماع البنك السنوى ...

هذا الفناء العجيب فى العمل وهذه المخاطرة بالحياة فى أدق أدوار لمرض لا يمكن أن تصدرا إلا عن رجل مؤمن برسالته يقف لها وينافح من أجلها أو يموت من دونها ...

ولقد نافح طلعت حرب من أجل رسالته ما شاء ثم استشهد من

أجلها ... ولكن حسبه أنه لم يمت إلا بعد أن أسس وبنى ورسم المناهج وأقام المجد وأرسل القدوة الحية التي لا تموت ...

* * *

نعم لقد كان خيال طلعت حرب خصباً ... ولكن إقدامه كان أخصب غرساً وأشد توقداً ووهجاً ...

فإذا الأيام تمضي وإذا الخيال هو الواقع الذي لا مرية فيه — فإذا لمصر بنك مرفوع العماد وإذا لمصر طائرات في السماء وسفائن في البحار ومصانع تضج بالعمل والإنتاج ...

وإذا المصريون يمارسون الصناعة ويزاولون التجارة ويسيرون بهذا في الطريق الحق الذي يحقق المطامح ويدني الغايات الكبار ... وإذا بهذا كله عنواناً لنهضة اقتصادية تعتمل بالعزم والطموح والإقدام ...

وهكذا كان طلعت حرب مزاجاً رائعاً لرجل الخيال والأعمال وهكذا صدق السير إدوارد كوك محافظ البنك الأهلي حين وقف يخطب في الاحتفال بمرور ١٥ سنة على تأسيس بنك مصر ويقول في طلعت حرب .

(أنتم تعلمون خيراً مني ما كانت عليه الأحوال هنا منذ خمسة عشر عاماً فيما يتعلق باشتراك المصريين في أعمال البنوك وأعمال الصناعة وما هي عليه اليوم فالفرق بين الاثنين هو العمل الذي اجتمعنا اليوم للإشادة بتمجيده .

ولكن هذا ليس كل شيء ففي بعض الأحيان تقسم الرجال إلى

فريقين . أحدهما من أصحاب الأحلام والملهمين والأنبياء ولكن لدينا من الرجال العمليين ويندر جدا أن تتألف مجموعة من هذين الصنفين معاً مثل هذه المجموعة هنا فى شخص طلعت حرب باشا .

ولست أدرى هل عند ما جلس مع أصدقائه منذ أعوام يفكر فى وضع مشروعاته وخططه للمستقبل خطر ببساله ما قاله (كافور) أحد مؤسسى إيطاليا الحديثة بلهجة الإعجاب والفخار فى وقت كانت فيه الوحدة القومية تبدو بعيدة المنال . فإذا فعل فقد أحسن عند ما اتخذ شعاره هذه الكلمة (ستبنى مصر نفسها بنفسها) .

أما ما تم فى خلال هذه السنوات الخمس عشرة فلا يقاس بالإحصائيات والأرقام وحدها فقد تم شىء كثير ولا يزال هناك الشىء الكثير .

وهناك ما هو أهم من هذا وأعنى به (التأثير النفسانى) فى عقول الشباب المصرى ممن يتوقون إلى خدمة وطنهم فقد تولدت فى نفوسهم آمال جديدة و بثت فيهم روح احترام النفس) .

وينتهى السير إدوارد كوك من كلامه ليقف بعده المرحوم هنرى نوس بك رئيس اتحاد الصناعات ليقول فى طلعت حرب كلاماً شبيهاً . أنظر فإذا به يقول :

(إن العمل المالى والصناعى والاجتماعى الذى يقوم به بنك مصر يتغذى من موارد البلاد نفسها فهو فى جوهره عمل إنشائى مثمر ودائرة هذا العمل واسعة جدا وهو فيها يحرك القوى الكامنة و يجمعها فى نهضة تتقدم

في طبيل النجاح تدريجيا مقرونة بحسن البصيرة والحزم وقائمة على حسن التدبير و إتقان الاستغلال والتحويل إلى المنافع) .

* * *

والسير إدوار كوك والمرحوم هنرى نوس بك كلاهما يشغل مركزاً خطيراً فى حياة البلاد المالية والاقتصادية فالأول عميد البنك الأهلى والثانى عميد الصناعات الأجنبية وهما بهذه الصفة ليسا ممن يجاملون أو يسخون فى الإطراء والثناء فإن هما قالا فى طلعت حرب هذا الكلام المشرف فاعلم أنها شهادة حق وأنها صادرة عن رجلين يعرفان جيداً قيمة ما يقولان . . .

و إنهما إذ يشيدان بطلعت حرب فإنما يشيدان فى الواقع بالنهضة الوطنية التى أنشأها وأدارها إلى وجهتها ولم تكن هذه النهضة فى شطر كبير من حياتها بالتى تحظى بالرضى والإقبال من دوائر الأجانب فى البلاد . . .

ولكن نجاح الرجل طغى على كل اعتبار وأحال الأجانب مؤيدين وأنصاراً . . .

* * *

خلاصة ما قدمناه أن طلعت حرب بشهادة أعماله وشهادة الأجانب قبل المصريين قد نقل البلاد إلى وضع اقتصادى واجتماعى جديد فهو بهذا بداية مرحلة وتطور هام فى حياة البلاد .

إنه مفرق الطريق بين عهدين — عهد العجز والتخلف وعهد التحرر والتطور إلى أمام . .

ويخطىء من يصف طلعت حرب بأنه كان زعيما اقتصاديا فحسب وبأن مكانه فى نهضة مصر الحديثة سيتحدد بهذا الجانب الاقتصادى منها الذى كان صاحبه الذى أنشأه ورعاه ، يخطىء من يرى هذا الرأى لأن أدوات تقدير الرجل وإجلاله مكانه الواجب فى تاريخ البلاد ينبغى أن ينفذ إلى ما وراء أعماله . . . إلى ما وراء ما بنى وشاد . . . إلى ما انطوت عليه من المعانى واشتملته من المطامح والأغراض . . . وإلى ما تخلف عن هذه الأعمال من أثر فى النفوس والهمم والعزمات . . .

ولا مرية من هذه الناحية فى أن الآثار الاجتماعية التى تخلفت عن أعمال طلعت حرب ونجاحه فى هذه الأعمال لا تقل أثراً أو خطراً عن الآثار الاقتصادية ذاتها . . . إلا فى وجه واحد . . . هو أن هذه الآثار الاقتصادية قد تجد من يقومها بالمال ويقدرها بلغة الحساب والأرقام . . وأن هذه الآثار الاجتماعية ليست مما يقوم بالمال على أنها وإن اختلفت مظاهرها فقد التقت عند عودة الثقة إلى النفوس التى غادرتها هذه الثقة منذ بعيد . . .

وفى الحق لقد ترتب على نجاح بنك مصر ونجاح الشركات التى تفرعت عليه أن تأثره الكثيرون من المصريين أفراداً وشركات فشاركوا فى ميادين الأعمال الحرة وأنشأوا ضروباً من المشروعات الصناعية والتجارية وأصابوا فى ذلك حظاً غير هين من التوفيق والنجاح .

وها قد أصبح مألوفاً أن يشتغل المصريون بالأعمال الحرة صغيرها وكبيرها وتغيرت إلى حد بعيد تلك النظرة التى كنا نقيس من خلالها العمل الحر والمشتغلين به .

وما صدق هنا على العمل الحر يصدق أيضاً على كل عمل يكون أساسه استجماع الثقة بالنفس وفرط الإحساس بالكرامة والمقدرة الإنسانية . . .

وفى الحق إن زعامة طلعت حرب الاجتماعية زعامة أصيلة عنده فهى لم تجىء بالتبعة لزعامته الاقتصادية . . .

فقد كان فى صدر حياته مصلحاً اجتماعيا مهموماً لمسائل هذا الإصلاح ومطالبه . وكتابه فى الرد على قاسم أمين وقد قدمنا الكلام عنه يدلك على مدى عنايته بحوادث التطور الاجتماعى المنشود ومساهمته فيه بالفكر الثاقب والتوجيه الرشيد . . .

ولما أن أسس بنك مصر ثم شركات مصر لم تستطع شواغل هذا العمل الضخم العظيم أن تقف بينه و بين إرضاء نزعاته الاجتماعية السامية فكانت له بين الحين والحين توجيهات من هذا القبيل تفيض بالتجربة الوافرة والنصح السديد . . .

لم تمنعه زحمة الأعمال فى بنك مصر وشركاته من أن يخطب فى حفلة توزيع الجوائز السنوية بالجامعة الأمريكية فى سنة ١٩٣٤ ليقول :

(. . . لهذا فانى أدعوكم أن لا تتصوروا النجاح فى الحياة معلقاً على وظيفة ينالها الشاب فى الحكومة . بل النجاح معلق قبل كل شىء على الصفات التى تتحلى بها نفوس الأشخاص فإذا كانت هذه الصفات من شأنها تكوين شخصيات مستقلة معتمدة على ذاتها قوية فى إرادتها كان النجاح مضموناً واستقلال الشعوب لا يكون حقيقيًّا إلا يوم يكثر استقلال

الأفراد . أما إن كانت هذه الصفات قائمة على التبعية فى التصور والإرادة لتصور الغير وإرادته كان النجاح فى الحياة غير مضمون) .

ولم تمنعه زحمة الأعمال فى بنك مصر وشركاته من أن يخطب فى الزقازيق فى سنة ١٩٣٠ ليقول :

(وإذا كانت ماديات الغرب قد بدأت تتغلغل فى حياة الشرق وفى حياة مصر وكان يخشى أن تجتاح الفضائل الفردية التى يمتاز بها الشرق فهل تذكر من تقاليدنا ما كان يقوم به بيت المال من أداء الحقوق المفروضة للضعفاء من المرضى واليتامى والمصابين والعوزين . وهل نذكر بجوار ماديات الغرب الجارفة المادى السامية الأخرى التى ينادى بها المصلحون من تضامن اجتماعى واجب وإسعاف منظم فنسير سيرهم فى تنظيم الإحسان .

إن الإحسان المنظم أعظم مفخرة يمكن أن يصل إليها مجتمع بشرى أيا كان . وخير الإحسان المنظم ما قام به المجموع كواجب عام مع بقاء الباب مفتوحاً لمجهود الجماعات والأفراد)

ولما أن اعتزل العمل فى البنك والشركات خطب مرة واحدة عن طريق الإذاعة فكانت خطبته نصحاً وتوجيهاً وعظة هى عصارة العمل والكفاح زمناً طويلا .

أنظر إليه يقول مخاطباً الشباب .

(إن الأعباء التى تنتظركم على عتبة الحياة أعباء ثقيلة والمسئولية التى

ستتحملونها أمام أنفسكم وبلادكم مسئولية عظيمة فأعدوا لها ما استطعتم من قوة العلم وقوة الأخلاق فانكم ستجدون فى دنيا الأعمال والمسئولية دنيا أخرى غير التى عرفتموها فى البيت أو فى المدرسة دنيا جهاد . دنيا تمر وتحلو مراراً وتقبل حيناً وتدبر أحياناً فلا تجزعوا إذا أمرت أو أدبرت . ولا تطمعوا إذا احلوت أو أقبلت واشكروا الله فى كل حال . ولكل شىء قيمة . الإخفاق درسه وعظته . وللنجاح حلاوته وبشراه . فاحسنوا كل ما يوكل إليكم من عمل جهد الطاقة وأتقنوه قدر الاستطاعة ...)

* * *

فإذا كان مقطوعاً بأن طامت حرب قد شغل فى نهضة مصر الحديثة المكان الأول فى جوانبها الاقتصادية والمالية ... فإن جوانب هذه النهضة الاجتماعية تدين له بأخطر التوجيه والآثار ..

و إذا كان هذا هو مكان طلعت حرب فى تاريخنا الحديث فأى مكان له من حياتنا نحن هذه الأيام ؟

قد قضى الرجل إلى رحمة الله ، ولكنه ببنك مصر وشركات مصر بهذه الصروح الشامخة وهذه المآثر السامقة قد أصبحت ذكراه جزءا هاما من حياة كل مصرى لا ينساها إلا إذا استطاع أن ينسى وجوده المادى والمعنوى على السواء ...

وليست هذه الذكرى جزءا هاما من حياة هذا الجيل فحسب ولكنها

ستمضى عبر الأجيال القادمة ما بقى بنك مصر وما بقيت شركات مصر وما بقى كتاب النهضة الاقتصادية الوطنية مبسوطاً لمن أراد أن يضيف إليه من البناة والمنشئين سطوراً أو صفحات . .

وهذا هو التخليد الحق . أن يموت الرجل ولكنه يبقى حيًّا ما بقيت الحياة . . .